

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: 57 - 62]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِأَقْبَالِهَا:

لما ذكرت الآيات السابقة حال الضالين المكذبين وما يُجزون به من العذاب يوم الدين؛ ناسب أن تذكر الآيات بعدها أوجه الاستدلال على توحيد الربوبية المقتضي؛ لتوحيد الألوهية وسلامة الاعتقاد في الله تعالى؛ تعقيباً تقنيدياً على إنكار المشركين، وسوقاً للأدلة القاطعة التي تُزيل الشبهة، وتؤكد أن القادر على الخلق أول مرة لا يعجز عن إعادة مثله، فهو من باب الانتقال من التهديد والوعيد إلى التقرير والبرهنة، بدءاً من النطفة، ثم الموت، ثم الزرع، ثم الماء، ثم النار، وكلها أدلة من المحسوس المشاهد؛ لتقريب إمكان النشأة الثانية وإلزام المكذبين بها.

الانتقال من
الوعيد والتهديد
إلى إقامة الحجة
على العبيد

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿تُمْنُونَ﴾: المنى: التقدير، يقال: منى لك الماني، أي: قدر لك المقدّر، ومنه: المنا الذي يوزن به فيما قيل، والمنى للذي قدر به الحيوانات⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَىٰ﴾ (٣٧) [القيامة: 37]، ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ (٦١) [النجم: 46]، والمنى: النطفة⁽²⁾، وأصله المعجمي يدلُّ على صبّ المنى وقذفه في الرَّحِمِ، وأمنى الرَّجُلُ ومنى، فالمراد بالآية ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُلْقُونَهُ مِنَ الْمَنِيِّ⁽³⁾.

(1) الراغب، المفردات: 1/ 779.

(2) النَّسْفِي، طلبية الطلبة، ص: 7.

(3) الرَّمَخَشَرِيُّ، أساس البلاغة: (منى).

(2) ﴿وَنُنشِئُكُمْ﴾: (نشأ) أصل يدل في معناه المعجمي على ارتفاع في شيء وسمو⁽¹⁾ والتكوين من حال إلى حال، والنشء والنشأة: إحداث الشيء وتربيته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾، ويُطلق كذلك على الإنشاء من العدم، و"ابتداء الخلق وكل من ابتداء خلق شيء واخترعه فقد أنشأه"⁽²⁾.

✽ المغنى الإجمالي:

وردت الآيات تعقيباً على وصف حال الضالين المكذبين، الذين أصرّوا على إنكار البعث والنشور، فجاء هذا المقطع القرآني في صورة حجاج عقلي رفيع، واستدلال برهاني قائم على المحسوسات، لإثبات إمكان النشأة الآخرة، بنقض دعوى استحالتها، عبر التذكير بما هو أقر في النفس وأظهر في الحس، وهو الخلق الأول.

البرهان
المحسوس على
إمكان البعث
من النشأة
الأولى إلى
النشأة الأخرى

فقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدِّقُونَ﴾ يمثل مفتحاً برهانياً يقرّر أنّ خالقكم ابتداءً هو الله، ثمّ ينتقل إلى تفصيل هذا البرهان بالحقيقة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾، أي: أفتأملتُم ما تقدفونه من ماء النطفة في الأرحام⁽³⁾، ﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾، وفي هذا إبطال لما يمكن أن يُتوهم من أنّ النشأة أمر طبيعي تلقائي، فهو في الحقيقة خاضع لتقدير الخالق وتدبيره.

ثمّ يأتي الانتقال من النشأة إلى نهايتها: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾، نحن الذين ربّنا الموت على الأحياء، وفق نظام محكم، لا يسبقنا فيه أحد، ولا يعجزنا أمر، قال مقاتل: فمنكم من يموت كبيراً، ومنكم من يموت صغيراً، وشاباً، وشيخاً⁽⁴⁾، ﴿وَمَا نَحْنُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ).

(2) السمين الحلي، عمدة الحفاظ: (نشأ).

(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 137/4.

(4) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 222/4.

بِمَسْبُوقِينَ ﴿٣٠﴾ عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾، أي: لا يعجزنا أن نستبدلكم بخلق أمثالكم، أو أن نعيد خلقكم في صور أخرى، قد لا تدركونها بعقولكم القاصرة، لكنها داخلة في قدرتنا الشاملة، ﴿وَنُنْشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ونوجدكم إنشاءً جديداً، وتكويناً مغايراً لما عهدتم من أنفسكم في الدنيا، في صورة لا تدركون كنهها الآن، ولا تملكون تصوورها بمدارككم الحاضرة.

ويُخْتَم هذا السياق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: إنكم تعلمون بالضرورة كيف خلقتكم أول مرة، فالآيات تجري على نسق من الجدل الحي؛ إذ تنقلك من مشهد العقاب والجزاء، إلى عرض الدليل العقلي المحسوس.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

علة فصل قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾:

فُصِّل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، إمّا لأنه من تمام ما أمر بأن يقوله لهم، ويجوز أن يكون استئنافاً مستقلاً، وموقعه استدلال وعلة لمضمون جملة: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٣١﴾ لَمَجْمُوعُونَ﴾؛ ولذلك لم تعطف الجملة^(١)، أي: إمّا من باب كمال الاتصال على معنى قل لهم: كيت وكيت، وإمّا من باب كمال الانقطاع، مع وجود تناسب انتقالي من ذكر الوعيد إلى ذكر حجاج الوعيد، مُراعَى في تغيُّر الغرض؛ إذ الغرض فيما سبق إنذاري تهديدي، يُبين مصير الضالِّين المكذِّبين يَوْمَ الدِّينِ، وأمّا الغرض في الآيات التالية: فهو إقامة الحُجَّة العقلية على من أنكر البعث، فأفاد هذا الانتقال تحوُّلاً من وصف المآل إلى تفنيد المقال، وجاء التعبير بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾؛ تقريراً لمقدمة أولى لا تُنكر، يُبنى عليها البرهان

الانتقال
الخطابي من
العذاب إلى
البرهان ومن
وصف المآل إلى
تفنيد المقال

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 312 / 27.

التّالي، بأسلوب توبيخيّ: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، أي: فهلاً تُصدّقون بالبعث؛ ما دمتم مقرّين بأصل الخلق؟.

فائدة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

تقوية الحكم
للردّ على إنكار
قدرة الله على
البعث

قدّم ذكرُ المسند إليه، وهو الضّمير ﴿نَحْنُ﴾، على المسند الفعليّ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾؛ لإفادة تقوية الحكم ردّاً على إحالتهم أن يكون الله قادراً على إعادة خلقهم بعد فناء معظم أجسادهم، حين يكونون تراباً وعظاماً، فهذا تذكير لهم بما ذهلوا عنه بأنّ الله هو خلقهم أوّل مرّة، وهو الذي يعيد خلقهم ثاني مرّة، فإنّهم وإن كانوا يعلمون أنّ الله خلقهم لما لم يجروا على موجب ذلك العلم بإحالتهم إعادة الخلق؛ نُزلوا منزلة من يشكُّ في أنّ الله خلقهم، فالمتصوّد بتقوية الحكم الإفضاء إلى ما سيفرع عنه من قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٥٠﴾ عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾⁽¹⁾.

نكتة استعمال مفردة (الخلق):

إبداع النّشأة
الأولى وتمهيد
لإثبات البعث

استعمل النّظم الكريم مفردة الخلق في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، دون غيرها من الألفاظ ك (أنشأناكم) أو (جعلناكم) أو (صوّرناكم)؛ لما ترجع إليه من تضمّنها معاني الإيجاد التّامّ على غير مثال سابق، والتّقدير المحكم المتقن، والتّصوير الكامل، ممّا يُناسب تماماً مقام الاحتجاج على من يُنكر البعث والقدرة على الإعادة، وهو ما يُمهّد للآية التي تليها مباشرة: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾، فالخلق مدخل للحديث عن تقدير الحياة والموت والبعث، فتأتي أهميّة ذكر مفردة (الخلق) كدليلٍ عقليّ على إمكان البعث، فالله الذي بدأ خلق الإنسان من نطفة قادر على إعادته بعد موته، فالّتصديق بالخلق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 312 / 27.

يوجب التصديق بالإعادة، ومن ثمَّ فإنَّ إنكار البعث مع الإقرار بالخلق تناقض عقلي⁽¹⁾.

تعيين مرجع ضمير الخطاب في قوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾:

مرجع ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ هم المخاطبون في الآيات السابقة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾، أي: أولئك المنكرون للبعث والمعاندون للحق، الذين وصفهم الله تعالى قبل ذلك بأنهم كانوا مترفين، مصرين على الحنث العظيم، منكرين للبعث قائلين: ﴿أَيَّدًا مِثْنًا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظًا أَعَتَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

توجيه الخطاب
إلى الضالين بعد
الوعيد تقرير
بعد تقرير

فجاء الخطاب في ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾؛ ليكون بمنزلة التعقيب على جحودهم، وتذكيرهم بما يقطع حجَّتْهم، أي: أنتم تنكرون البعث، ونحن قد خلقناكم ابتداءً من نطفة، أفلا تُصدِّقون بقدرتنا على إعادتكم؟ فهذا الخلق الأوَّل شاهد حاضر على إمكان الخلق الثاني.

نوع الفاء ودلالاتها في قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ واقعة في سياق احتجاج عقليٍّ يراد به إلزام المخاطبين بوجوب الإيمان بالبعث، بعد أن تقرَّر خلقهم الأوَّل بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، فجاءت الفاء لتربط هذا التقرير بما بعده على جهة التفرُّيع البياني⁽²⁾، بمعنى: إذا كنتم تقرِّون بأنَّ الله هو الذي خلقكم، فلمَ لا تصدِّقون أنَّه قادر على إعادتكم؟ فهي تفرُّيع لإنكار عدم التصديق على أمرٍ قد ثبت لديهم، وهو الخلق.

تفريع الاحتجاج
العقلي على
قاعدة أصل
الخلق

فائدة (لولا) في الجملة:

(لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ من أدوات التحضيض

(1) البقاعي، نظم الدرر: 415 / 7.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 319 / 27.

تحضيض
للمخاطبين
على الإيمان
بالتوبيخ العقلي
والتحريض
الإيماني

التصديق أوّل
منازل الإيمان
واكتمال اليقين

المضارع في
موضع التوبيخ
استدعاء
الحاضر
واستمرار الحجّة

والعتاب والتوبيخ، دخلت على فعل مضارع يُراد به طلبُ الإيمان والتّصديق، "إِذَا بِالْخَلْقِ؛ لَأَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُصَدِّقِينَ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمَّا كَانَ مَذْهَبُهُمْ خِلَافَ مَا يَقْتَضِيهِ التّصَدِيقُ، فَكَأَنَّهُمْ مَكْذُوبُونَ بِهِ، وَإِذَا بِالْبَعْثِ؛ لِأَنَّ مَنْ خَلَقَ أَوَّلًا لَمْ يَمْتَنِعْ عَلَيْهِ أَنْ يُخْلَقَ ثَانِيًا"⁽¹⁾، فالتّقدير البياني: (فلولا إذ قد علمتم أننا خلقناكم، وآتيناكم الحياة، تُصَدِّقُونَ بذلك؟).

بلاغة استعمال مفردة ﴿تُصَدِّقُونَ﴾:

ناسب اختيار لفظ ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بدلاً من (تؤمنون) مقام الاحتجاج العقلي، وأكّد على مقصدٍ مخصوص من مقاصد السّورة، وهو الاحتجاج على منكري البعث في سياق استدلالٍ جدليّ، لا في معرض بيان أصل الإيمان، فالتّصديق أخصّ من الإيمان؛ إذ يُراد به تسليم الدّهن وإذعان العقل بصدق الخبر، بعد قيام الحجّة عليه، بخلاف (الإيمان) الذي يشمل التّصديق القلبيّ والانقياد العمليّ.

بلاغة التعبير بصيغة المضارع ﴿تُصَدِّقُونَ﴾:

جاء التعبير بالفعل المضارع ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ دون: (صدّقتُم)؛ للدّلالة على الحال والاستمرار والتّجدّد⁽²⁾، كما يشي بالتّقرّيع والتّحفيز على تغيير الموقف في الزّمن الحاضر، لا مجرد حكاية عن موقف ماضٍ، ففي قوله: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ إيحاء بأنّ موطن الإنكار والتّقصير ما يزال قائماً، والفرصة ما تزال مهیأة لتدارك الأمر، ولذلك يوبيّخهم على استمرارهم في الجحود بالرّغم من وضوح البرهان، كأنّه يقول لهم: ما بالكم تُعرضون عن التّصديق في الحال الحاضر؟.

والتّعبير بالفعل المضارع يُبقي سامع الآية حاضر الدّهن، منتبهاً إلى أنّ القضية ليست تاريخيّة منقطعة، بل ممتدّة في كلّ

(1) الزّمخشری، الکشاف: 4/ 463.

(2) للبرّد، اللقّضب: 2/ 2، والزّمخشری، اللّفظ: 137/ 2.

آن، وتصلح لكل مخاطب، ولهذا تجد أن آيات الحجج العقلية كثيرًا ما تُصاغ بالمضارع لما فيه من تصوير مباشر للحدث، وإبراز لقربه ومسّه للواقع النفسي والذهني.

غرض الاستفهام في جملة «أَفَرَأَيْتُمْ»:

الاستفهام في قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ» يُراد به التحفيز على التأمل والتبكي العقلي، وهو جارٍ على نسق نظائره في السورة، من مثل قوله: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ»... «أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ»... «أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ»، وهو بمعنى (أخبروني)⁽¹⁾، وغرضه إلفات نظر وتحريك بصيرة.

تحفيز المخاطبين
على التأمل والتبكي
بتأمل خلقهم
ومعرفة
سرّ بقائهم
واستمرارهم

وبهذا، تتضح بلاغة الاستفهام في أنه يُفهم السامع في تأمل مباشر، يوقظه من غفلته، ويدفعه إلى مواجهة الحقيقة دون وسائط: أن الخلق ابتداءً وانتهاءً هو من الله وحده، وأن الإنسان، وهو مباشر الأسباب، لا يملك من حقيقة الخلق شيئاً.

نوع الفاء ودلالاتها في جملة «أَفَرَأَيْتُمْ»:

الفاء في قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ» هي فاء التّفريع، وقد جاءت بعد قوله: «نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ»، وهي تفيد التّفريع الاستنتاجي، أي: إنَّها ربطت بين التّوبيخ السابق وبين البرهان الذي يُراد إيرادُه في قوله: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ»، أي: خلقناكم الخلق الذي لم تروه، ولكنكم توقنون بأننا خلقناكم، فتدبروا في خلق النّسل؛ لتعلموا أن إعادة الخلق تشبه ابتداء الخلق⁽²⁾.

نقل الخطاب من
مقام التّوبيخ
إلى مقام إقامة
الدّليل العقليّ
المحسوس

فالفاء هنا بمنزلة قولك: (إذا لم تُصدّقوا، فانظروا إلى هذه الحقيقة التي تدلّكم على ما يجب عليكم أن تُصدّقوا به)، فهي فاء ترتيب وتعقيب ذهنيّ، تُفصح عن أن ما بعدها متفرّع عمّا قبلها،

(1) الألوسي، روح المعاني: 27 / 147.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 312.

من باب التعليل أو التفرع أو التسبب العقلي، ودلالاتها البلاغية: أنها تنقل الخطاب من التوبيخ واللوم على التكذيب، إلى مقام إقامة الدليل العقلي المحسوس.

تعين المعطوف عليه في جملة ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾:

العطف على
مقدّر بعد همزة
الاستفهام أو
على مذكور
قبلها

المعطوف عليه بالفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ هو ما تقرّر في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، فجملة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ معطوفة على محذوف مقدّر دلّ عليها السياق، وتقديرها: (أعلمتم، فرأيتم ما تمنون)، فتكون ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ تفریعاً على ذلك التقدير، أو قيل: إنّها معطوفة على قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، أي: نحن خلقناكم، فرأيتم ما تمنون؟ والفرق بين الأمرين، أن تكون الفاء عاطفة على مقدّر بعد همزة الاستفهام وهذا مذهب عريق للزمخشري، والآخر أن تكون عاطفة على ما قبل همزة الاستفهام، وهو مقتضى مذهب سيبويه.

نوع الرؤية في جملة ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ ودلالاتها:

رؤية اعتبار لا
رؤية إِبصار تقوّد
إلى تحقيق الحقّ
في النفوس

الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ هي رؤية عقلية قلبية، لا بصرية حسية؛ لأنّ المقصود منها التأمل والتفكير في حقيقة النشأة الأولى للإنسان من المني⁽¹⁾، والمقصود هنا هو تحريك العقل لإدراك دلائل البعث من خلال النظر العقلي في أصل الخلق، كما أنّ ما يُمنى لا يُرى عادة في حال خروجه، ممّا يدلّ على أنّ الرؤية هنا رؤية اعتبار وتفكير، لا رؤية عين، وهذا المعنى متسق مع أسلوب القرآن في الاستدلال العقلي؛ إذ يُؤتى بمثل هذا الاستفهام التّبهيّ؛ ليدفع المخاطب إلى التفكير في أمر قريب منه، معلوم لديه، ولكنّه غافل عن دلالته الكبرى، فينبّهه السياق إلى أنّ الخلق من نطفة لا يملكها الإنسان، ولا يعرف حقيقتها دليل على قدرة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 313 / 27.

اللَّهُ تعالى على البعث بعد الموت؛ إذ مَنْ خلق من ضعف، قادرٌ على الإعادة بعد الفناء.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالاتها في قوله: ﴿مَا تُمْنُونَ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، أي: (أَفَرَأَيْتُمْ الشَّيْءَ الَّذِي تُمْنُونَهُ؟) والمقصود بـ﴿مَا تُمْنُونَ﴾: ما تلقونه من المنيّ في أرحام النساء، ودلّت ﴿مَا﴾ على العموم؛ لتشمل أصلَ المنيّ ذاته وما فيه من الخلق الكامن في أصله، أي: إنّ المولى ﷺ يستوقف الإنسان عند تلك النُطفة الصّغيرة المهيّنة؛ لجعله يتأمّل عجزه عن خلقها أو توجيه مصيرها، وفيها إشعار بعمق الجهل البشريّ بحقيقة هذا المنيّ، كأنّه شيءٌ غير معلوم في ذاته، يُشار إليه بما يُستغلق على الفهم، فتكون ﴿مَا﴾ أبلغ في التّجهيل والإبهام والتّغريب، ممّا يثير العقل للتّفكّر.

المنيّ المعروف
أثره معدوم
القدرة عليه
ومدفع التشبه
به

براعة اختيار مفردة ﴿تُمْنُونَ﴾:

اختار النّظم الكريم مفردة ﴿تُمْنُونَ﴾ الدّالة على التّكاثر دون (تلدون) أو (تتكاثرون) أو (تُنجبون)؛ وذلك أنّ لفظ ﴿تُمْنُونَ﴾ مأخوذٌ من (الإمناء)، أي: إلقاء المنيّ، فكان التّعبير به أبلغ في استحضار أصل الخلق الأوّل، ونقطة الابتداء، لا ما يكون بعده من الولادة أو الميلاد، فالمقصود ليس الحديث عن الولد في حال وجوده، بل عن مبدأ وجوده من ذلك السّائل المهيّن الذي لا حيلة فيه للعبد، والذي هو أدنى ما يكون من حيث القدرة والعظمة والكرامة، ومنه يُبدأ خلق الإنسان.

المنيّ كلمة ناطقة
بأصل الإنسان
واستمراره
وإعادته مع
الإشعار بالمهانة

واختيار لفظ ﴿تُمْنُونَ﴾ يُلَفّت السّامع إلى عجائب القدرة الإلهيّة الّتي تبني الخلق على مادّةٍ هي في نظر النّاس دون المقام، مهينة في ذاتها، فكيف بها إذا كانت موضع عناية ربّانيّة تصنع منها إنساناً كاملاً؟ فالتّعبير هنا في غاية الدّقّة؛ لأنّه لا يتوجّه إلى تمام

الخلق، بل إلى لحظة البدء، واستمرار الخلق، وهو ما يناسب مقام التذكير بالإعادة والبعث، فإنَّ القادر على الإبداع من المنِّي؛ قادرٌ على الإعادة من العظام والتراب.

نكتة التعبير بصيغة المضارع ﴿تُؤْنُونَ﴾:

أوسع الأفعال
امتداداً في
الحدث البشري
الكلّي هو فعل
الإمناء

التعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُؤْنُونَ﴾؛ لبيان التَّجَدُّد والاستمرار المستقبليّ إلى يوم الدين، فالإمناء حدثٌ بشريٌّ ممتدٌّ من لدن آدم ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو حدث واقعيٌّ متكرّر متجدّد مستمرٌّ، شاهد على قدرة الله في كلّ آنٍ وعلى استمرار الخلق بأمره وإرادته، فليست حياة النَّاس ببدءٍ قد انقضى، بل ببدء يتجدّد، وهذا أدعى لأن يستيقظ فيهم التذكير بالبعث؛ لأنّه مبنيٌّ على نظير يَروْنه كلّ يوم.

بلاغة الإسناد المجازي في جملة ﴿تُؤْنُونَ﴾:

تصوير الفعل
الامتنائيّ توطئة
لنقض دعوى
القدرة عليه

جاء إسناد فعل الإمناء إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُؤْنُونَ﴾ إسناداً مجازياً، فهذا الفعل من حيث الحقيقة ليس من صنعهم، ولا قدرة لهم عليه، وإنّما هو بتقدير الله وتديره، فالمنيّ نعمة إلهيّة محضة، والمنيّ إنّما يُخْرَج بأمر الله، ويحمل في قطراته أعقد أسرار الحياة، التي لا يعلمها الإنسان، ولا يُدرك كنهها، ولا يملك أن يُبدلها، أو يُحسن توجيهها؛ فالإسناد مجاز عقليّ؛ إذ أُسند الفعل إلى سبب من أسبابه، لا إلى الفاعل الحقيقيّ.

غرض الاستفهام في قوله: ﴿أَأَنْتُمْ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾؛ للتقرير بتعيين خالق الجنين من النطفة؛ إذ لا يسعهم إلّا أن يقرّوا بأنّ الله خالق النسل من النطفة، وذلك يستلزم قدرته على ما هو من نوع إعادة الخلق⁽¹⁾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 313 / 27.

جملة ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ بين الاسمية والفعلية:

"(أَنْتُمْ) مبتدأ، وجملة ﴿تَخْلُقُونَهُ﴾ خبر، ويجوز إعراب (أَنْتُمْ) فاعلاً لفعل مقدّر، أي: أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَنْتُمْ، فلَمَّا حُذِفَ الفعل؛ لدلالة ما بعده عليه؛ انفصل الضمير، وهو من باب الاشتغال، ولعله من جهة القواعد أمكن لأجل أداة الاستفهام⁽¹⁾، والجملة على تقدير الاسمية والفعلية تحمل بلاغة عالية، فالاسمية تُشير إلى دوام الاستفهام التّقريري في النفس المنكرة، إلى أن تؤوب إلى الحق، فتدعن، وتؤمن، والفعلية تُشير إلى تجدد الاستفهام في خطاب النفس البشرية تجددًا يُنتظر من ورائه رواء الإيمان في القلوب، فعلى الاحتمالين فالنّكتة حاضرة متجلية في آثارها الإيمانية، وفي سياقها الحجاجي.

نكتة تقديم المسند إليه على المسند الفعلي:

قدّم ذكر المسند إليه على المسند الفعلي في قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾؛ "لإفادة التّقوي؛ لأنهم لما نزلوا منزلة من يزعم ذلك كما علمت؛ صيغت جملة نفيه بصيغة دالة على زعمهم، تُمكن التّصرّف في تكوين النّسل"⁽²⁾، ويُلاحظ في التّقديم إيماء إلى التّهمك بالمخاطبين المنكرين، وأنّ خلق المنّي لا يكون إلّا لله وحده، فأفادت الجملة في المآل دلالة اختصاص الخلق بالخالق.

نوع ﴿أَمْ﴾ ودلالاتها البيانية:

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ حرف عطف، تحتل أن تكون منقطعة؛ لأنّ بعدها جملة، والمنقطعة تُقدّر بـ(بل) وهمزة الاستفهام، فيكون الكلام مشتملاً على استفهامين، الأوّل: ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾، وجوابه: (لا)، والثّاني: مأخوذ من ﴿أَمْ﴾، أي: بل نحن

سؤال الخلق
ثابت متجدد في
النفس البشرية

تقرير المنكرين في
البدهيّات محرّج
لعقولهم أمام
البرّيات

احتمال أن تكون
(أَمْ) منقطعة
ومتّصلة

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 441 / 9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 314 / 27.

الخالقون وجوابه: (نعم)، أو لأن الاستفهام ليس بحقيقي، فليس من غرضه طلب تعيين الفاعل، ويكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿تَخْلُقُونَهُ﴾، والمعنى: أظنّون أنفسكم خالقين النّسمة ممّا تمنون؟. وتحتمل أن تكون ﴿أَمْ﴾ متّصلة، فهي معادلة، ويؤيّد هذا الوجه أنّ الكلام يُؤوّل إلى أيّ الأمرين واقع، والجملة بعدها في تأويل المفرد، كما أنّ ما بعدها معطوف؛ لأنّ الغالب ألاّ يُذكر له خبر اكتفاءً بدلالة خبر المعطوف عليه على الخبر المحذوف، وههنا أعيد الخبر في قوله: ﴿أَمْ نَخْنُ الْخَلِيقُونَ﴾ زيادة في تقرير إسناد الخلق إلى الله في المعنى، وللإيفاء بالفاصلة وامتداد نفس الوقف⁽¹⁾.

أسلوب القصر ودلالته:

تقديم النفي
على الإثبات
قصر برهاني مقو
للدّلة ودامع
للبراهين

أفاد الاستفهام ﴿عَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ تقريرهم على أنّهم لا يخلقون، فثبت بذلك نفي الخلق عن المخاطبين، ولما أثبت فيما بعد ﴿أَمْ نَخْنُ الْخَلِيقُونَ﴾؛ فهم من مجموع ذلك قصر الخلق على الله تعالى⁽²⁾، كما أنّ في قوله تعالى: ﴿نَخْنُ الْخَلِيقُونَ﴾ قصراً إضافياً بتعريف الجزأين المبتدأ ﴿نَخْنُ﴾، والخبر ﴿الْخَلِيقُونَ﴾ بقصر الخلق على الله وحده، ونفيه عمّن سواه نفيّاً قاطعاً، وبلاغة هذا الأسلوب ظاهرة في سياق الجدل الحجاجي لمنكري البعث؛ إذ يُنتزع الإقرار من الخصم بتسليم أوّل مراحل الوجود: الخلق من ماء مهين، ثمّ يلزم بنتيجته: أنّ من بدأ الخلق هو وحده القادر على إعادته.

غرض تقديم المسند إليه على المسند:

قدّم ذكر الضمير ﴿نَخْنُ﴾ المسند إليه على المسند ﴿الْخَلِيقُونَ﴾؛ لإفادة مزيد من التّخصيص والتّوكيد، فهو قصر بالجملة والتّقديم معاً، وهذا القصر يجيء في سياق تقرير الحقيقة بعد إنكارها،

الخالقية
خصوصية
ربانية تجابه
النكر بالأدلة
العيانية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 314 / 27، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 441 / 9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 314 / 27.

ففيه ضرب من المجابهة البرهانية، يقيهما القرآن بأقوى الأساليب التي تُرغم الخصم على التسليم: (أنتم لا تخلقون، ونحن وحدنا الخالقون)، فكما لا قدرة لكم على بدء الخلق، فلا قدرة لكم على بعث بعد الموت، وهو موطن الإنكار الذي جوبهوا به، فالمعنى البياني المحقق هنا: ليس الخالق لهذا المنى وما يتبعه من أطوار الخلق سوانا، فنحن الذين ننفرد بهذا الوصف، وهذا الفعل، لا أنتم ولا غيركم، فدعوا التكذيب، وتفكروا.

نكتة ذكر ﴿الْخَالِقُونَ﴾ وعدم الاكتفاء بما قبل ﴿أَمْ﴾:

ذكر لفظ ﴿الْخَالِقُونَ﴾ بعد ﴿أَمْ نَخُنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ دون الاكتفاء بأن يُقال: ﴿أَمْ نَخُنْ﴾؛ وذلك لأنَّ الإتيان باسم الفاعل ﴿الْخَالِقُونَ﴾ أفاد تأكيد المعنى واستقراره في الذهن، والعدول إلى اسم الفاعل أفاد قصرًا بلاغيًا بوساطة تعريف الطرفين، ولما ذُكر في صدر الآية: ﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾، جاء بعدها: ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾، لا بمجرد الإسناد الفعلي بل بالصفة اللازمة ﴿الْخَالِقُونَ﴾؛ ليقع التباين بيانيًا بين دعوى الخلق من جهة الإنسان، وهي دعوى ظاهرية شكلية لا حقيقة لها، وبين الخلق الحقيقي المتقن الكامل، الذي لا يكون إلا لله تعالى.

بلادة فنَّ الاحتباك:

في قوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ احتباك؛ إذ "ذكر أولًا (تخلقون) دليلًا على حذف مثله له سبحانه ثانيًا، وذكر الاسم ثانيًا دليلًا على حذف مثله لهم أولًا، وسرُّ ذلك أنه ذكر ما هو الأوفق لأعمالهم ممَّا يدلُّ على وقت التجدد، ولو وقتًا ما، وما هو الأولى بصفاته سبحانه ممَّا يدلُّ على الثبات والدوام"⁽¹⁾.

إبراز المعاني
الكبرى بالألفاظ
الحاصرة
والمؤكدة أرسخ
من الإيماء

الاحتباك كاشفٌ
عن تقابل لفظيٍّ
مغاير وحذف
مثيله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 416.

عَلَّةُ فصل جملة: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا﴾:

فُصل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾؛ لَأَنَّهُ استئنافٌ مستقلٌّ، فقد شرعت الجملة ببيان أمر الموت بعد ذكر خلق النَّاسِ، وهو فصل مقصود ببياناً، وله نكتة بلاغية عميقة تتجلى في توجيه التركيز والانتباه إلى مضمون هذه الجملة المستقلة، لتوكيد مضمونها وتثبيتها في الذهن، فإنَّ تقرير أنَّ الموت مقدَّر، وليس طارئاً ولا عشوائياً هو قضية مستقلة في ذاتها تستدعي توكيداً خاصاً، فجاءت الجملة منفصلة؛ لتدلَّ على أنَّ الله وحده هو المتصرِّف في أمر الحياة والموت دون أن يكون ذلك ملحَقاً بالخلق فقط، بل هو قدر إلهيٌّ مستقلٌّ، وفي ذلك توخُّ للتَّخْخيم والإجلال؛ إذ إنَّ الفصل يحمل وظيفة الفصل التَّعْظِيميَّ؛ لتكون الجملة ذات وقع خاص في نفس السَّامع لما تحويه من تقرير أمر جلل هو الموت الَّذي يقع بتقدير محكم.

نكتة تقديم المسند إليه على المسند في قوله: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا﴾:

قُدِّمَ المسندُ إليه على المسندِ الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾؛ "لإفادة تقويِّ الحكم وتحقيقه، والتَّحْقِيق راجع إلى ما اشتمل عليه التَّركيب من فعل ﴿قَدَرْنَا﴾ وظرف ﴿بَيْنَكُمْ﴾ في دلالتهما على ما في خلق الموت من الحكمة الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا"⁽¹⁾؛ إذ جاءت في مقام تقرير الحقائق العليا الَّتِي تُبْطِلُ مزاعم المكذِّبين بالبعث والنَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ، فجاء هذا التَّقديم بأسلوبٍ قَصْرِيٍّ، يُفِيدُ الحصر والتَّوكيد، فيُفْهَمُ منه المعنى: نحن لا غيرنا قَدَرْنَا الموت بينكم.

بلاغة الإطناب في قوله: ﴿قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾:

آثر النُّظْمُ الكريم الإطناب على الإيجاز، في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾، فلم يقل: (نُمِيتُكُمْ)، ففي لفظ ﴿قَدَرْنَا﴾ إشعارٌ بالتَّقدير المسبَّق، والحكمة المتقنة، والتَّدْبِيرُ المحيط، لا الإيقاع

استئناف المعاني
الترابطة مزينة
النظم الحكيم
وبلاغة الربط
المتين

قصر تقدير
الإجمال على
الخبر الحكيم
توطئة لميقات
الحليم العليم

تقدير الموت
تقسيم الآجال
وتوزيع الأعمار
بقدر عائد إلى
الخبر الحكيم

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 314 / 27.

العشوائيّ للموت، كما قد يتوهم من يرى الموت حادثاً بلا نظام، فالموت عند الله ليس مجرد إماتة تحصل، بل هو مقدّر بميزان محكم، وفي أوقات مضبوطة، وعلى كنيّة مخصوصة، وهذا المعنى لا تُفِيدُه لفظة (نميتكم) المجردة عن دلالة التقدير، فالموت "مَجْعُولٌ على تقدير معلوم مراد، مع ما في مادّة ﴿قَدَرْنَا﴾ من التذكير بالعلم والقدرة والإرادة؛ لتتوجّه أنظار العقول إلى ما في طيّ ذلك من دقائق، وهي كثيرة، وخاصّة في تقدير موت الإنسان الذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة؛ إن أخذ لها أسبابها"⁽¹⁾.

توجيه القراءات القرآنيّة:

اختلف القراء في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾، فقرأ ابن كثير (قَدَرْنَا) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد ﴿قَدَرْنَا﴾ وهما لغتان قدرت وقدرت⁽²⁾، وهما بمعنى واحد، فالتشديد مصدره التقدير، والتخفيف مصدره القدر⁽³⁾.

براعة ذكر الظرف ﴿بَيْنَكُمْ﴾:

جاء التعبير بالظرف في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾؛ للدلالة على التوزيع المقصود والمنظم للموت في الناس، فليس هو وقوعاً عشوائياً، بل هو تفريق، وتقدير موزّع في بني آدم بحسب حكمة إلهيّة، فيقع على بعضهم دون بعض في أوقات مختلفة وأعمار متباينة، فالموت "يأتي على أحادهم تداولاً وتناوباً، فلا يفلت واحد منهم، ولا يتعيّن لحلوله صنف ولا عمر، فأذن ظرف (بين) بأنّ الموت كالأشياء الموضوع للتوزيع لا يدري أحد متى يصيبه قسطه منه، فالنّاس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم لا يدري أحد

القراءات المتواترة
تنوُّع لفظيٍّ
وتوافق دلاليٍّ

الموت قسمة بين
البشر لا يفلت
منها امرأة أو
ذكر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 314 / 27.

(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 367، وابن الجزري، التشر في القراءات العشر: 383 / 2.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 315 / 27.

متى يُنادى عليه ليأخذ قسمه، أو متى يطير إليه قطه، ولكنه يوقن بأنه نائله لا محالة⁽¹⁾.

فالتعبير بـ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أبلغ من (لكم) أو (عليكم)؛ لأنه يصور الموت، وكأنه يتحرك داخل الجماعة البشرية، واقعاً فيهم ومختلطاً بهم، لا يأتي من خارجهم، ويُفيد شمول التقدير لجميع الناس دون استثناء، كما يحمل إشارة إلى استمرار هذا التقدير في كل جيل وتعاقب، وفيه معنى الاحتجاج بانتظام وقوع الموت بين الناس على صحّة البعث؛ إذ من قدر ذلك بتلك الدقة، فهو أقدر على الإعادة، وقد جاء هذا التعبير موافقاً لمنهج السورة في إثبات البعث من خلال حقائق واقعة محسوسة تقرُّ بها العقول والعيون.

بلغة الاستعارة المكنية:

بذكر الظرف ﴿بَيْنَكُمْ﴾ كان في قوله: ﴿بَيْنَكُمْ أَلَمُوتُ﴾ "استعارة مكنية؛ إذ شُبّه الموت بمقسوم، ورُمز إلى المشبّه به بكلمة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ الشائع استعمالها في القسمة، قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمْ أَنْ أَلَمَاءُ قِسْمَةٍ بَيْنَهُمْ﴾ [القلم: 28]، وفي هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للناس، إمّا في الدنيا لئلا تضيق بهم الأرض والأرزاق، وإمّا في الآخرة؛ فللجزاء الوفاق⁽²⁾، وفي هذا التصوير البلاغي إشارة ضمنية إلى أن الموت حق جارٍ بنظام، وليس فناءً عبثياً، ممّا يقوّي حُجّة البعث التي تسوقها السورة، ويجعل من التأمل في هذه النعمة الإلهية مدخلاً إلى الإيمان بالخالق المدبر، القادر على النشأة الثانية.

بلغة العدول عن الفاء إلى الواو ودلالاتها البيانية:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ "نتيجة لما سبق من الاستدلال

الموت حاضر بين
الناس ينتظر
وقت قطع
الأنفاس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 315 / 27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 314 / 27.

على أَنَّ اللهَ قادِرٌ على الإحياء بعد الموت، فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بفاء التَّفريع، ويترك عطفه، فعدل عن الأمرين، وعطف بالواو عطف الجمل فيكون جملة مستقلة مقصوداً لذاته؛ لأنَّ مضمونه يفيد النتيجة، ويفيد تعليمًا اعتقاديًا، فيحصل الإعلام به تصريحًا وتعريضًا، فالصَّريح منه التذكير بتمام قدرة الله تعالى، وأَنَّهُ لا يغلبه غالب، ولا تضيق قدرته عن شيء، وأَنَّهُ يُبدِّلهم خلقًا آخر في البعث مماثلاً لخلقهم في الدنيا، ويفيد تعريضًا بالتهديد باستئصالهم وتعويضهم بأمة أخرى، كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ٢٠ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢١﴾ [إبراهيم: 19 - 20]، ولو جيء بالفاء؛ لضاقت دلالة الكلام عن المعنيين الآخرين⁽¹⁾.

نكتة استعمال أداة النفي (ما):

آثر النظم الكريم استعمال أداة النفي (ما)، في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بدلاً من (لسنا بمسبوقين)؛ ليُضفي على الجملة مسحة من القوة والصَّرامة، فهي أكد من (ليس)⁽²⁾، وفيها معنى التَّوكيد⁽³⁾، وهي مع الجملة الاسميَّة تُفيد الاستغراق والثُّبوت، أي: إنَّ انتفاء المسبوقية عن الله تعالى أمر راسخ دائم لا يتبدَّل، فهذا نصٌّ في الرُّسوخ والثُّبَات.

نكتة تقديم المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، جاء تقديم المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المسند ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لإفادة القصر، أي: نحن وحدنا لا يسبقنا أحد، ولا يكون ذلك لغيرنا، وهذا ضرب من أسلوب القصر العربيِّ المعروف بتقديم ما حقه التَّأخير، وهو أسلوبٌ يُستعمل

تعليمُ الخلقِ
القدرةُ المطلقةُ
باستقْدارِ
الجملِ المترابطةِ

توكيد المعاني
وتقويتها
مسلكُ القرآن
في السِّياقِ
الحجاجيِّ

الخلقُ كُلُّهُ
مسبوقٌ والحقُّ
وحدهُ سابقٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 316 / 27.

(2) سيبويه، الكتاب: 460 / 1.

(3) السيوطي، الإتقان: 176 / 1.

لِلتَّخْصِيسِ أَوْ لِلتَّوْكِيدِ أَوْ لِلرَّدِّ عَلَى دَعْوَى بَاطِلَةٍ، وَهَذَا فِيهِ رَدُّ صَرِيحٍ عَلَى شَبْهَةِ الْكُفَّارِ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَقُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى الْإِعَادَةِ.

ثُمَّ إِنَّ فِي تَقْدِيمِ ﴿نَحْنُ﴾ تَقْوِيَةً لِلزَّمِيرِ، وَتَوْكِيدًا عَلَى عَظَمَةِ الْفَاعِلِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ؛ إِذْ يَحْمِلُ هَذَا التَّقْدِيمُ مَعْنَى الْهِيمَنَةِ وَالْإِقْتِدَارِ، كَأَنَّمَا قِيلَ: (نَحْنُ الْمُتَفَرِّدُونَ الْمُدَبِّرُونَ، وَنَحْنُ الْقَادِرُونَ عَلَى الْإِعَادَةِ كَمَا ابْتَدَأْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ يَغْلِبُنَا، أَوْ يَتَقَدَّمُنَا).

نوع الباء ودلالاتها في قوله: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لتوكيد النفي الدَّاخل على ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾⁽¹⁾، لتفيد تقوية المعنى وتشبيته في النفس، فجاءت؛ لَتُعَزِّزَ دَلَالَةَ النَّفْيِ مِنْ جِهَةٍ، وَتَمْنَحَ الْجُمْلَةَ بَعْدًا مِنَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَقَدْ اسْتَعْمَلَتِ الْبَاءُ؛ لِمَا فِي هَذِهِ الْبَنِيَّةِ مِنْ اسْتِبْعَادٍ أَنْ يُسَبِّقَ اللَّهُ تَعَالَى، أَوْ يُغْلَبَ عَلَى أَمْرِهِ، فَهِيَ تَفِيدُ الْإِمْتِنَاعَ وَالْإِسْتِحَالَةَ مَعًا، وَتُوحِي بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَنَفَازِ إِرَادَتِهِ فِي الْخَلْقِ وَالْمَوْتِ وَالْإِعَادَةِ، وَتَتَنَاسَبُ مَعَ مَقَامِ الْجَلَالِ الَّذِي يَسُوقُ فِيهِ اللَّهُ الْحُجْجَ عَلَى الْبَعْثِ وَالْقُدْرَةِ، كَمَا أَنَّ التَّعْبِيرَ بِهَا يَنْسَجِمُ مَعَ نِعْمَةِ السُّورَةِ وَأَسْلُوبِ التَّحْدِي فِيهَا، فَهِيَ أَبْلَغُ وَأَوْقَعُ فِي النَّفْسِ مِنَ النَّفْيِ الْمَجْرَدِ.

بلاغة استعمال مفردة السَّبِقِ دُونَ الْغَلْبَةِ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، "أَي: عَلَى أَنْ نَذْهَبَكُمْ، وَنَأْتِي مَكَانَكُمْ أَشْبَاهَكُمْ مِنَ الْخَلْقِ، فَالَسَّبِقُ مَجَازٌ عَنِ الْغَلْبَةِ اسْتِعَارَةً تَصْرِيحِيَّةً أَوْ مَجَازَ مَرْسَلٍ عَنْ لَازِمِهِ"⁽²⁾، فَالتَّعْبِيرُ بِلَفْظِ السَّبِقِ دُونَ الْغَلْبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، يَجِيءُ عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي الدَّقَّةِ الْبَلَاغِيَّةِ؛ إِذِ السَّبِقُ أَخْصُ وَأَدْقُّ مِنَ الْغَلْبَةِ؛ لِأَنَّ السَّبِقَ يَدُلُّ عَلَى فَوَاتِ الْفَاعِلِ إِلَى الشَّيْءِ قَبْلَ غَيْرِهِ، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّكَ

توكيد عجز
البشر وتثبيت
معنى
الاستحالة

نفي السَّبِقِ أبلغ
من نفي الغلبة،
فإذا تعدَّر
السَّبِقُ؛ فمن
باب أولى الغلبة

(1) الحمصي، حاشية التصريح: 156 / 1.

(2) الألويسي، روح اللعاني: 14 / 147.

غيره من منعه، وهو أن يفوته من يريد منعه من فعل شيء، فإذا نُفي السَّبَق؛ دلَّ ذلك على أنَّ الله تعالى لا يُفَوِّت عليه شيء، ولا يسبقه أحد إلى أمر هو يريده، ولا يقدر أحد أن يمنعه من إنفاذ ما شاء، لا بتقدُّم عليه، ولا بمبادرة قبله، ولا بقطع عليه طريق فعله، ومن ثمَّ فإنَّ نفي السَّبَق أبلغ من مجرد نفي الغلبة؛ لأنَّ الغلبة قد تكون بعد نزاع، أمَّا نفي السَّبَق؛ فيدلُّ على الاستئثار بالفعل من أصله، ويقطع احتمال المعارضة أو الممانعة من جذورها.

غرض التعبير بقوله: ﴿أَنْ تُبَدِّلَ﴾:

جاء التعبير بالفعل المضارع المنسبك مع ﴿أَنْ﴾، في قوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ أَمَثَلَكُمُ﴾؛ لما في الفعل من دلالة على التَّجَدُّد والحدوث الزماني والفعليَّة المتحرِّكة، ممَّا يُناسب السَّيَاق البلاغيَّ الذي يُراد به التهديد والتحذير والتوكيد على القدرة الإلهية الفاعلة والمتجدِّدة، لا سيَّما في مقام الرَّدِّ على المكذِّبين بالبعث، وفي قوله: ﴿أَنْ تُبَدِّلَ﴾ إشعار بالفعل من جهة القصد والتَّوجُّه، بينما المصدر (تبديل) لا يشعر بالفعل بقدر ما يشعر بحقيقته الذَّهنيَّة، وكأنَّما هو وصف للفعل لا فعله، وهذا ما يُضعِف من إحياء التهديد.

بلاغة التعبير بلفظ: ﴿أَمَثَلَكُمُ﴾:

﴿أَمَثَلَكُمُ﴾ جمع (مَثَل) بكسر الميم وسكون المثلثة، وهو النُّظير⁽¹⁾، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۖ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ أَمَثَلَكُمُ﴾، أي: على أن نبديل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق، وعلى أن (ننشئكم) في خلق لا تعلمونها، وما عهدتم بمثلها، يعني: إنَّا نقدر على الأمرين جميعاً: على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون ﴿أَمَثَلَكُمُ﴾

بين المصدر
والفعل سرّاً
التعبير بالفعل
في مقام التحذير
والقدرة

الإيجاز المهيمن
في الاختصار على
المذكور دون ذكر
البديل في سياق
التهديد

(1) الرَّمْشَرِيُّ، الكَشَاف: 4/ 463، وابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّوْبِير: 27/ 317.

جمع مثل، أي: على أن نبذل، ونُغيّر صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها⁽¹⁾.

وآثر النظم الكريم التعبير بقوله: ﴿أَنْ تُبَدِّلَ أَمْنَلَكُمْ﴾ دون أن يقول مثلاً: (نُبَدِّلُكُمْ بِأَمْثَالِكُمْ) أو (نُبَدِّلَ أَمْثَالاً مِنْكُمْ)؛ لجمع الاحتمالين المذكورين آنفاً، أي: تبديل الناس أو تبديل الصفات، وللايماء إلى أن المراد ليس مجرد الإبدال بمثل أو بديل، بل التنبية على أن أمثالهم - وهم بشر أيضاً - يمكن إيجادهم وإنشاؤهم على نسقهم أو على هيئة تزيد عليهم، دون الحاجة إلى بيان مَنْ يُبَدِّلُ بهم، كأن القدرة قادرة على أن تطرحهم، وتأتي بغيرهم دون تفصيل، ما دام أولئك ﴿أَمْثَلَكُمْ﴾، وهنا تحقير خفيّ وسلب لخصوصيتهم، وأن الله لا يعجزه أن يخلق بشراً يماثلونهم في الخلقة، أو يزيدون، فأنتم لستم شيئاً استثنائياً.

بلاغة العطف بالواو في قوله: ﴿وَنُنْشِئُكُمْ﴾:

﴿وَنُنْشِئُكُمْ﴾ عطف على ﴿تُبَدِّلُ﴾، أي: ما نحن بمغلوبين على إنشائكم، وهذا العطف يحتمل أن يكون عطف مغاير بالذات، فيكون إنشاؤهم شيئاً آخر غير تبديل أمثالهم، أي: نحن قادرون على الأمرين جميعاً، فتبديل أمثالهم خلق أجساد أخرى تودع فيها الأرواح، وأمّا إنشاؤهم؛ فهو نفخ الأرواح في الأجساد الميتة الكاملة، وفي الأجساد البالية بعد إعادتها بجمع متفرّقاتها أو بإنشاء أمثالها من ذواتها، مثل: عجب الذنب، وهذا إبطال لاستبعادهم البعث بعد استقرار صور شبهتهم الباعثة على إنكار البعث⁽²⁾.

وعُطف بالواو؛ لأنه بمفرده تصوير لقدرة الله تعالى وحكمته بعدما أفاده قوله: ﴿أَنْ تُبَدِّلَ أَمْنَلَكُمْ﴾ من إثبات أن الله قادر على

من التبديل إلى
الإنشاء تصعيد
الوعيد في بناء
قرآني محكم

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 463.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 318.

البعث⁽¹⁾، وقد اختيرت (الواو) دون (ثُمَّ) أو (الفاء)؛ لتفيد الجمع دون ترتيب زمني يوحى بتباطؤ، فإنَّ التَّهْدِيدَ لَا يُمْنَحُ فِيهِ مَهْلَةٌ تَدْعُو إِلَى التَّدْرُجِ، بل يَأْتِي التَّهْدِيدُ مَزْدُوجًا مُتَوَازِيًا، فكلَا الفعلين واقع في قدرتنا وفي إمكاننا دفعة واحدة.

نكتة استعمال مفردة (ننشئكم):

آثر البيان القرآني لفظ ﴿وَنُنشِئُكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ذلك أنَّ لفظ (نعيدكم) يُشعر بالرجعة إلى حالٍ معلومة وتجربة مألوفة، وهي النشأة الأولى، أمَّا لفظ (ننشئكم)؛ فيدلُّ على ابتداء وإنشاءٍ من نوع آخر لا عهد لهم به، وهو ما صرَّح به بقوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: في هيئة أو خلق أو طورٍ مجهول مغاير لطبيعتكم التي تعرفون، قال البقاعي: "أي: إنشاءً جديدًا بعد تبديل ذواتكم ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإنَّ بعضهم تأكله السَّباع أو الحيتان أو الطيور، فتنشأ أبدانها منه، وبعضهم يصير ترابًا، فربَّما نشأ منه نبات فأكلته الدَّواب، فتنشأت منه أبدانها، وربَّما صار ترابه من معادن الأرض كالذهب والفضة والحديد والحجر ونحو ذلك، وقد لمح إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ أَوْ خَلْقًا﴾ [الإسراء: 50-51] إلى آخرها، أو يكون المعنى كما قال البغوي: نأتي بخلق مثلكم بدلًا منكم، ونخلقكم فيما لَا تَعْلَمُونَ من الصُّور، أي: بتغيير أوصافكم وصوركم في صور أخرى بالمسخ، ومن قدر على ذلك؛ قدر على الإعادة⁽²⁾.

فجاء اختيار (ننشئكم)؛ ليفيد الابتداء لا الإعادة، وليثير في المخاطبين قلقًا وغموضًا عن المصير، فهم لا يعلمون ما سيكونون عليه، وهل يكون ذلك في أجساد أخرى، أم في عالم مختلف، أم بصفات

تهويل المصير
المجهول والوعد
بالعودة إلى البهمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 318 / 27.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7 / 417.

مغايرة، وكلُّ ذلك يفتح عليهم باب الهلع من المجهول، فيكون أوقع في قلوب المكذِّبين بالبعث، وأبلغ في التهديد من مجرد (الإعادة).

بلاغة استعمال حرف الظرفية:

الظرفية في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ظرفية مجازية معناها قوة الملابس الشبيهة بإحاطة الطرف بالمظروف، كقوله: ﴿فَعَدَلَكَ ۖ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝﴾ (الانفطار: 7-8)⁽¹⁾، وهذا يتناسب مع المعنى المقصود، وهو أنَّ النشأة الجديدة التي يُهدَّدون بها ستكون في طور أو حال أو عالم أو هيئة مجهولة لهم، فهم لا يحيطون بها علمًا، ولا يدركون كنهها، فكأنهم سيقعون ضمن شيء مبهم محيط بهم من كلِّ جانب، أشبه بالولوج في تجربة وجودية لا سبيل لهم إلى تصوُّرها، وهو ما يُثير في النفس رهبة وغموضًا؛ لأنَّ (الظرفية) تعني أنَّ المخلوق يكون غارقًا ومحاطًا، وكأنَّ تلك النشأة الجديدة ستكون بيئة أو وعاءٍ يحتويهم، لا مجرد صفة طارئة عليهم.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالاتها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، موصولة وليست نكرة موصوفة أو شرطية، ودلالاتها هنا تفيد العموم في المجهول، أي: في الذي تجهلونه من الأطوار والهيئات والكيِّفيات، فهي اسم موصول بمعنى: الذي، والتقدير: في الذي لا تعلمونه.

وتقع ما على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل، جاءت ﴿مَا﴾؛ لاستخدامها فيما يعقل وما لا يعقل، فجاء التعبير بها دون (الذي)؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ أعمُّ وأدُلُّ على الغموض والإبهام، قال سيبويه: "و(مَنْ) وهي للمسألة عن الأناسي، ويكون بها الجزاء للأناسي" و(ما) مثلها إلا أنَّ (ما) مبهمة تقع على كلِّ شيء"⁽²⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 318 / 27.

(2) سيبويه، الكتاب: 309 / 2.

غموض الظرفية
ترهيب نفسي
دافع لاستدراك
الغموض
الإيماني

الاتساق في
استعمال
أدوات الإبهام
والغموض
أنسب في معاني
النظم

"و﴿مَا﴾ من قوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ صادقة على الكيفية، أو الهيئة التي يتكيف بها الإنشاء، أي: في كيفية لا تعلمونها؛ إذ لم تحيطوا علمًا بخفايا الخلقة، وهذا الإجمال جامع لجميع الصور التي يفرضها الإمكان في بعث الأجساد لإيداع الأرواح"⁽¹⁾، وقد جاءت هنا لتعزيز المعنى المراد من المقام، وهو تهويل النشأة الجديدة وتجهيل حقيقتها عن الخلق، حتى يشعر السامع أن تلك النشأة واقعة في حيّز مجهول لا يعلم الإنسان له جهة ولا وصفًا.

نكتة استعمال أسلوب النفي في قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾:

آثر النظم الكريم استعمال أسلوب النفي في قوله تعالى: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بدلًا من الإثبات، فلم يقل: (في ما جهلتم)؛ وذلك ليحمل دلالة بلاغية رفيعة، تتجلى في تأكيد انقطاع علمهم كليًا عن حقيقة تلك النشأة، وجعل المجهول عنهم أمرًا مطبقًا لا سبيل إلى تصوّره أو إدراكه، وليس مجرد خفاء نسبي، ففي النفي بـ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ تنبيه إلى أن الجهل هنا ليس طارئًا ولا عارضًا، بل هو جهل مستقرّ، مطلق، لا يدرك الإنسان حقيقته بعقله ولا بخياله، ثم إن أسلوب النفي أدخل في باب الإبهام المرهب والتجهيل المطلق، وفيه إشعار بأن تلك النشأة التي يُنشؤون فيها ليست من مألوف تصوّراتهم، ولا ممّا يدركه خيالهم، ولا ممّا شوهد له نظير في الدنيا، فيكون ادعى لبعث الخشية في قلوب المكذّبين، وأشدّ تأثيرًا في زعزعة غرورهم، وأبلغ تحريكًا لوجدانهم.

غرض حذف المتعلّق بالفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

إن حذف المتعلّق بالفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، جاء لتحقيق بلاغة الإبهام المقصود، وهو إبهام المفعول

النفي في تصوير
المجهول أبلغ
في النفس في
مشهد النشأة
الأخرى

المخاطبون
لا يعلمون
رسوخًا، ولا
يعلمون حقائق
المبهمات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 318 / 27.

به، أي: لا تعلمون ماهيته، أو كنهه، أو حقيقته، أو وقته، أو كيفيته، وكل تلك الاحتمالات مقصودة معاً على سبيل التوسّع لا التضييق، فكان حذف المتعلّق وسيلة لإشاعة الغموض والتّهويل، وهذا الإبهام يسهم في تعميق أثر التهديد، فيجعل النفوس تتوجّس من أمر مجهول لا قبّل لها به ولا تصوّر لمداه.

ومن لطيف ما يفيد الحذف هنا أنّ الإنشاء الجديد الذي يتوّعدون به ليس فقط مجهولاً من حيث وقته أو مظهره، بل هو مجهول من كلّ وجه؛ لأنّ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تُفيد نفي العلم بأيّ شيء عنه، ولو ذكر المتعلّق؛ لتحدد وجه الجهل، كأن يُقال: لا تعلمون هيئته أو زمنه، لكن بحذف المتعلّق صار الجهل به تامّاً مطبقاً، وهذا أعون على إثارة الرّهبة والوجل في صدور من يُخاطبون، ولا سيّما في معرض تهديد إنكاريّ بعد ذكر صنوف النّكال في الآيات السابقة.

كما أنّ من أغراض حذف المتعلّق تنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللّازم؛ لبيان أنّهم في هذا المضمار لا يعلمون، فيكون نفي العلم وصفاً راسخاً فيهم، والنّكات لا تتزاحم.

براعة التعبير بالفعل المضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

التعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جاء للدلالة على الاستمرار والتّجدّد، فقولُه: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ لا يصف حالاً ماضوياً محدوداً بل يُشير إلى أنّ جهلكم بما سينشئه الله في الآخرة أمر قائم وممتدّ ومتجدّد، فأنتم الآن لا تعلمون، ولن تعلموا ذلك إلّا حين وقوعه، ولا سبيل لكم إلى إدراكه في الدّنيا، فنفي العلم مستمرّ متجدّد، وفيه ردٌّ على أدعياء معرفة الغيب، فالفعل المضارع تحدّ صارخ مستمرّ يُنادي عليهم أن لن تعلموا، وهو ما يجعل التهديد مفتوحاً على مصير مجهول، يزيد القارئ أو السّامع حذراً وارتقاباً؛

الاستمرار في
الجهل تحدّ
صارخ إلى يوم
الدّين

لأنَّ ما لا يُعْلَم متوقَّع فيه كلُّ شيء، وهذا أبلغ في التَّخويف من معرفة الجزاء أو العذاب بعينه.

كما أنَّ المضارع ينسجم بلاغيًّا مع المقابلة المقصودة في آخر الآية نفسها: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾، فالمضارع في ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ جاء ليُقابل الماضي ﴿عَلِمْتُمْ﴾، فكأنَّ المعنى: قد علمتم بأبصاركم ووقائعكم النَّشْأَةَ الْأُولَى، أمَّا الثَّانية: فجهلكم بها تامٌّ وممتدُّ كلمكم في الأولى، فكيف تجحدونها، وهي في قدرة من أنشأ الأولى؟.

نوع الواو وبلاغتها في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾؛ للاستئناف، وبلاغتها في هذا الموضع دقيقة، تحمل نكتة بيانية تتصل بسياق الإنكار والتَّقرُّيع المتدرِّج الذي تنتهجه الآيات. فهي تفيد الانتقال من تقرير قدرة الله على إنشاء النَّشْأَةَ الثَّانية - التي جهلها المنكرون، وكذبوا بها - إلى إقامة حُجَّة محسوسة عليهم، وهي علمهم اليقينيُّ بالنَّشْأَةِ الْأُولَى، أي: علمهم بأنَّهم وُجدوا بعد أن لم يكونوا، وأنَّ الله خلقهم من نطفة، ثمَّ طوَّرههم، وهذا الانتقال في الخطاب جاء مفاجئًا ومباشرًا للتَّوكيد والاحتجاج، والتَّلويح بالتَّكذيب.

دلالة التَّوكيد باللام و(قد):

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ هي لام القسم، وهي تفيد التَّوكيد، وتدلُّ على أنَّ ما بعدها مُؤكَّد قسمًا، وأمَّا (قد): فهي أيضًا حرف تحقيق إذا دخلت على الفعل الماضي⁽¹⁾، وتفيد أنَّ الفعل قد وقع، وثبت، فيكون التَّركيب كله - ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ - مشحونًا بتوكيدين متعاقبين بالقسم (اللام) والتَّحقيق بـ (قد). وبهذا التَّعبير المكثَّف، يُقرِّر الله ﷻ علم المخاطبين المُؤكَّد

واو الاستئناف
حُجَّة مباغتة
وتوبيخ مضمَّر
وتلويح
بالتَّكذيب

توكيد الحُجَّة
ونقض المكابرة
دفعٌ للإنكار
وتحقيرٌ للتَّكذيب

(1) الصَّافي، إعراب القرآن: 123 / 27.

بالنَّشْأَةُ الأولى، ويجعله برهاناً قطعياً على إمكان النَّشْأَةُ الثانية، بل حُجَّةٌ عقليةٌ عليهم إن هم أنكروها؛ إذ مَنْ عَلِمَ النَّشْأَةَ الأولى، وجَرَّبَ أطوار خلقه، لا يسعه إنكار النَّشْأَةَ الثانية إلا جحوداً أو غفلة.

براعة الطَّباق بين نفي العلم وإثباته:

في قوله تعالى: ﴿وَنُنَشِّئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ براعة بيانيةً بليغة تتجلى في الطَّباق الأسلوبى بين نفي العلم في قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإثباته في قوله: ﴿عَلِمْتُمْ﴾، فمن جهة، عبَّر القرآن عن النَّشْأَةُ الثانية بكونها فيما لا يعلمون، إشارة إلى أنها تختلف عن النَّشْأَةُ الأولى من حيث الهيئة أو الطَّبِيعَةُ أو العالم الذي تُنشأ فيه النُّفُوس، "فالعلم المنفي في قوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو العلم التَّفصيليُّ، والعلم المثبت في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ هو العلم الإجماليُّ، والإجماليُّ كافٍ في الدلالة على التَّفصيليُّ؛ إذ لا أثر للتَّفصيل في الاعتقاد"⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى، جاء إثبات العلم بالنَّشْأَةُ الأولى؛ ليكون مقدِّمةً منطقيةً، وبرهاناً عقلياً على إمكان النَّشْأَةُ الأخرى؛ إذ إنَّ الَّذِي خلقكم أوَّلَ مرَّةٍ على غير مثال سابق، قادر على أن يعيد خلقكم كيف شاء، في صورة لا تعلمونها، وهنا تتجلى روعة الطَّباق، فكما كنتم تعلمون النَّشْأَةَ الأولى علماً يقينياً حسيّاً، فإنَّ النَّشْأَةَ الأخرى ستقعون فيها، ولكن في طور لا تعلمونه الآن.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿عَلِمْتُمْ﴾:

التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾، يحمل دلالة بيانيةً دقيقة مقصودة، فهي لتحقيق الوقوع وثبوته؛ لأنَّ الماضي يدلُّ على أمر مضى، وانقضى، وثبت علم المخاطبين به، ممَّا يُقَرِّبُ الحُجَّةَ، ويقطع المَعْدِرَةَ، ويجعل العلم

بناء الحُجَّة
المجادل بها
بالْحُجَّةِ التَّفَقُّ
عليها بطباقٍ
محكم

الفعل الماضي
يُقيم البرهان
على حضور
العلم في
الأذهان تحقُّقاً
لا يقبل الانزياح

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 319 / 27.

بالنَّشْأَةَ الأولى علمًا حاصلًا غير قابل للجدل أو الإنكار، بخلاف المضارع الذي قد يحتمل الاستمرار أو التَّجَدُّد، ولتقوية الحُضِّ على التَّذْكَرُ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، فالتَّعْبِيرُ بالماضي يُراد به تثبيت الحُجَّة وتوبيخهم على قسوة قلوبهم وعدم استثمارهم لعلمهم السَّابِق في الوصول إلى التَّصَدِيق بالبعث والنَّشْأَةَ الآخرة.

بلادة الخبر في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾:

الخبر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ ليس لمجرَّد الإعلام، بل ليلزمهم بما لا يمكنهم إنكاره؛ إذ هم عالمون بحقيقة خلقهم الأوَّل، فقد نشؤوا من نطفة ثمَّ علقه ثمَّ مضغة، ومروا بمراحل الخلق حتَّى صاروا بشرًا سويا، فكيف ينكرون نشأة يعيدهم الله فيها، وهم قد علموا النَّشْأَةَ الأولى، وعاشوها؟ هذا الخبر يجيء في مقام التَّقْرِير؛ لِيُؤَسِّس عليه الإنكار المتضمَّن في قوله بعد ذلك: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ففيه براءة في عرض المفارقة بين حالهم، وما كان ينبغي لهم أن يسلكوه من طريق التَّذْكَرُ والاستدلال بما علموه، لا الإصرار على التَّكْذِيب، فهو خبر ظاهره تقريرٌ وباطنه إنكارٌ توبيخيٌّ، يفضح تناقض موقفهم، ويثبت أنَّ إنكارهم للبعث ليس عن جهل، وإنَّما عن إعراض وعناد.

نكتة التَّعْبِيرُ بِالنَّشْأَةِ دُونَ الْخَلْقَةِ:

التَّعْبِيرُ بمفردة ﴿النَّشْأَةُ﴾ بدلًا من (الخلقَة)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ ينطوي على دقَّة بلاغيَّة وعمق بيانيٍّ، فَإِنَّ ﴿النَّشْأَةَ﴾ تفيد ابتداء الوجود من العدم وتربيته، فهي تتضمَّن معنى الحدوث والانبعاث بعد عدم، ومن ثمَّ القيام على تربيته⁽¹⁾، بخلاف (الخلقَة) التي قد تنصرف إلى مجرَّد التَّصْوِير أو التَّقْدِير أو الهيئَة دون أن تشير إلى ابتداء وجود الشَّيْء أو تربيته، فاستعمال

إنكار البعث
ليس عن جهل
بالمعارف بل عناد
بليد

بلادة اختيار
لفظ (النَّشْأَةُ)
في إثبات البعث
بين الدلالة على
الابتداء وحجَّة
الإلزام

(1) الراغب، للفردات، ص: 807.

﴿النَّشْأَ﴾ في هذا السياق يلائم غرض الآية في إثبات إمكان النّشأة الثانية؛ لأنّ الخطاب موجّه إلى منكري البعث، فجاء بـ﴿النَّشْأَ﴾؛ ليربط بين النّشأتين، الأولى الّتي علموها، وتحقّق وقوعها فيهم، والثّانية الّتي ينكرونها، فالآية احتجاج عليهم بما علموا من أمر النّشأة الأولى؛ ليلزمهم الإقرار بالثّانية، ولهذا كان التّعبير بـ﴿النَّشْأَ﴾ أبلغ من (الخلق)؛ إذ فيها دلالة على ابتداء الحياة وتمام الخلق بعد أن لم يكونوا شيئاً، فهي تتناول أطواراً متعدّدة تشهدا النّفس البشريّة، وتدرك من خلالها حقيقة القدرة الإلهيّة، ممّا يجعل إنكارهم للنّشأة الآخرة بعد ذلك ضرباً من المكابرة المفضوحة.

توجيه القراءات القرآنيّة:

تنوّع القراءات
يُثري المعنى،
ويُنبّه على قوّة
الدّلالة المقصودة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾، قرأ الجمهور ﴿النَّشْأَةَ﴾ بسكون الشّين تليها همزة مفتوحة مصدر نشأ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحده بفتح الشّين بعدها ألف تليها همزة ﴿النَّشْأَةَ﴾⁽¹⁾، فقراءة الجمهور: ﴿النَّشْأَةَ﴾، على وزن (فَعْلَة)، وهي مصدر دالٌّ على الحدوث والتّكوين، وتفيد معنى الابتداء والنّمو والارتقاء في الخلق، والقراءة الثّانية ﴿النَّشْأَةَ﴾ على وزن (فَعَالَة)، قال الفراء: "وهي مثل الرّأفة والرّأفة على الصّواب"⁽²⁾.

والقراءتان متقاربتان في المعنى، وهما من مصادر الفعل (نشأ)، لكنّ قراءة الجمهور بـ﴿النَّشْأَةَ﴾ أقرب دلالة على الهيئة المتكاملة للنّمو الأوّل، وهي الأنسب لسباق الآية الّذي يُحتجّ فيه على المكذّبين بالبعث بأنّهم قد علموا النّشأة الأولى بكلّ أطوارها منذ العدم حتّى التّمام، فهي شهادة قائمة في النّفس والحسّ، أمّا قراءة ﴿النَّشْأَةَ﴾؛ فهي تُثري النّصّ من جهة تنوّع الأساليب القرآنيّة ومراعاته لتعدّد الألسنة.

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 343.

(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 315، والكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 319.

غرض وصف النشأة بالأولى دون السابقة:

إنَّ التَّعبير بلفظ «الأولى» في قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى» دون أن يُقال: (النَّشْأَةُ السَّابِقَةُ)، جاء على نحو بالغ الدقَّة في البيان القرآني، وذلك أنَّ «الأولى» تدلُّ على أنَّهم لم يكونوا شيئاً قبلها⁽¹⁾، وعلى ترتيب في الوجود والزَّمن، وتُشعر بوجود نشأة ثانية من جنسها ستأتي بعدها، فهي كلمة تأسيسية تمهِّد لذكر النشأة التالية⁽²⁾، وتُهيئ الذَّهن لها، وتجعلها ضرورة منطقية بعد إثبات الأولى، أمَّا لفظ (السَّابِقَةُ)؛ فله طابع إخباري يُشير إلى زمن مضى دون أن يُفهم منه بالضرورة أنَّ هناك تالية تُتَظَر، أو يُحتَجُّ بها، فـ«الأولى» أوقع في موضع التَّحدِّي؛ لأنَّها تفتح الباب للمقابلة العقلية التي تجعل البعث والنشأة الأخرى أمراً غير مُستغرب، ما دامت «الأولى» قائمة محسوسة قد شهدها الإنسان، وعلم أطوارها، وفي ذلك ترقُّ بلاغيٌّ يجعل من إقرار المخاطب بـ«النَّشْأَةِ الْأُولَى» مقدِّمة لإلزامه بالإيمان بإمكانية (النَّشْأَةِ الْآخِرَةِ)، على نحو ما ينسجه أسلوب القرآن في إحكام الحجَّة وتقرير العقيدة من باب المحسوس إلى الغيب، كما أنَّ اختيار «الأولى» تلويح بالأخرى، وهي البعث.

نوع الفاء ودلالاتها:

الفاء في قوله تعالى: «فَلَوْلَا نَذَرَُونَ» هي فاء تفريع، وهي تفيد السَّبَب، أي: إنَّها تربط ما بعدها بما قبلها ربط النتيجة بالمقدِّمة، وقد جاء قبلها قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى»، وهي حقيقة مقرَّرة لا مجال لإنكارها؛ لأنَّها واقع مشهود، فاقتضى بعد ثبوتها أن يتفرَّع عليها التَّذكُّر والاعتبار بها، فجاء التَّوْبِيخ بـ«فَلَوْلَا»، التي تُفيد الحُصَّ على التَّذكُّر مع التَّوْبِيخ على تركه، بعد توافر سببه.

في لفظ الأولى
تلويح بالأخرى،
وهي البعث
وتجاوز بالزَّمن
إلى أوَّلِيَّة النَّشْأَةِ

التَّفْرِيع
الإرشاديُّ
على الأصل
الحجَّاجيِّ منهج
القرآن في تثبيت
الحقائق

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 644.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 419 / 29.

ودلالة الفاء هنا تزيد في المعنى التقريري؛ لأنها تُبرز اللوم على ترك التذكّر الذي كان ينبغي أن يكون لازماً بعد العلم، فمجيء الفاء دلّ على أنّ عدم تذكّرهم بعد علمهم هو أمر مستغرب غير سائغ في ميزان العقل والنظر، فصارت الفاء هنا محمّلة بمعنى التلازم العقليّ واللزوم الحجاجي، لتُقيم الحجّة في صورة توبيخ مؤلم من جهة، وتحريض هادٍ من جهة أخرى.

غرض استعمال أداة (لولا):

من لم يُرشده
عقله إلى
الإيمان؛ فحقّه
أن يُرمى بسهام
التوبيخ ورماح
التقريع

أداة (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاءت لمعنى التحضيض والتوبيخ، وهي بمعناها البلاغيّ ليست شرطية محضة، بل أخرجت عن أصلها (الامتناع لوجود المانع) إلى باب الحثّ والتنبية، فهي تُفيد توبيخاً مُضمّناً بحضّ على الفعل؛ إذ السياق يفيد أنّ العلم بالنشأة الأولى كان يجب أن يُنتج تذكّراً واستدلالاً على النشأة الثانية، فلمّا لم يقع ذلك؛ جاء الاستفهام التوبيخيّ على صورة تحضيض: فلولا تذكّرون؟ أي: هلاً تذكّرتم وقد علمتم؟.

وفي هذا التعبير شيء من اللوم المُغلّف بالدعوة إلى التّعقل، كأنّما يُقال لهم: إنكم لا تجهلون أصل خلقكم، وقد شاهدتم النشأة الأولى بأعينكم، فهلاً استعملتم هذا العلم في موضعه؟ أليس هذا كافياً لتذكّر البعث والنشأة الآخرة؟.

بلاغة استعمال ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ دون (تتفكّرون):

مناسبة لفظ
التذكّر في أعمال
العقل فيما هو
معلوم متقرّر
عند المخاطبين

آثر النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ استعمال الفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بدلاً من (تتفكّرون)، وذلك أنّ التفكّر هو إعمال العقل في طلب معرفة مجهولة، وتصرّف القلب بالنظر في الدلائل⁽¹⁾، أمّا التذكّر؛ فهو استحضار معلوم سابق، ولمّا كانت النشأة

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 75.

الأولى معلومة مشهودة لهم، وقد علموها من واقع خلقهم وولادتهم ونموهم؛ لم يكن المقام مقام بحثٍ أو تأملٍ في أمر غائب، بل هو مقام استدعاء ما قد عُلِمَ، وتيقُّن، فجاء التعبير بـ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ توبيخاً على ترك ما هو حاضر في أذهانهم، معلومٌ لهم، لا يحتاج إلى نظر جديد، وهو أبلغ في الحجة، وأشدُّ في الإلزام.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

التعبير بالفعل المضارع ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاء لبث الحيوية في الخطاب، وتجديد الدعوة للتذكُّر على وجه مستمرٍّ غير منقطع، والمعنى: ما يمنعكم الآن، وفي كلِّ حين أن تستحضروا ما علمتموه، وشهدتموه من النشأة الأولى؟.

فأفاد المضارع الاستمرار والتَّجدُّد، وكأنَّه لوم دائم متجدِّد على ترك التذكُّر، لا يُرفع عنهم؛ إذ لا عذر لهم، وهم يشهدون آثار الخلق الأولى في أنفسهم، ويعلمونها علماً لا يجهلونه، كما أنَّه أفاد التَّنبية على أنَّ باب التذكُّر مفتوح، فإن فاتهم التذكُّر فيما مضى؛ فليتداركوه الآن⁽¹⁾.

❁ الفروق المُعْجَمِيَّة:

السَّبق والغلبة:

السَّبق: من مادَّة (سبق)، وهي تدلُّ على التَّقدُّم على الآخر زماناً أو قدرةً أو فعلاً، وهو يدلُّ على أنَّ أحداً يتقدَّم على غيره في الوصول إلى أمرٍ ما أو إنجازهِ⁽²⁾، وفي السَّياق القرآني، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا يُسبقنا أحدٌ إلى شيء نريد فعله، ولا يعجزنا أحد عن تحقيق ما نقدِّره، أو نريده، سواء أكان ذلك في الإحياء أم في الإماتة أم في البعث.

استحضار دائم
للحجة وتوبيخ
لا ينقطع

السَّبق أعمُّ
دلالة وأسبق
وقوعاً من
الغلبة التي
تعني تفوُّق
طرفٍ على آخر

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 319 / 27.

(2) الخليل، العين، وابن سيده، الحُكْم، والزَّمَخْشَرِيُّ، أساس البلاغة: (سبق).

وَأَمَّا الْغَلَبَةُ: فهي من مَادَّة (غلب)، وهي تدلُّ على التَّفُوق بعد منازعة، أي: مغالبة ومقاومة ثُمَّ قَهْر⁽¹⁾، والغلبة تشير إلى أَنَّ طرفاً قاوَم أو نازع أو تحدَّى، فغُلب، فهي تفترض وجود قوَّة مضادَّة، أو خصم ظاهر، وهي تعني الانتصار في صراع، لا مجرد التَّقَدُّم.

فاختار القرآن نفْي السَّبْق في هذا الموضع ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، ولم يقل: "وما نحنُ بمغلوبين"؛ لكون المقام مقام قدرة إلهيَّة مطلقة، لا تقع تحت مغالبة أو نزاع، فاللَّهُ لا يُدركه سابقٌ، ولا يُعجزه لاحقٌ، ولا يُعطِّلُه مانعٌ، بينما (الغلبة) توحى بخصم يعارض، وهذا غير لائق في مقام الألوهيَّة، فالسَّبْق: نفْيٌ لقدرة أحدٍ على التَّقَدُّم أو اللِّحاق بقدرة الله. والغَلَبَةُ: نفْيٌ لمغالبة أو خصومةٍ تُؤدِّي إلى هزيمة، ف(السَّبْق) أوسعُّ دلالةً، وأبقى بمقام القدرة الرَّبَّانيَّة الخالصة، ولهذا اختير في هذا الموضع؛ للدلالة على أَنَّ الله منفرد بالفعل بلا تحدٍّ ولا مقاومة، وبلا إمكان إدراكٍ أو تجاوز.

النَّشْأَةُ وَالْخَلْقَةُ:

الخلقَةُ مأخوذة من الجذر (خلق)، وهي تدلُّ في أصل معناها على إبراز الشَّيء من العدم إلى الوجود على هيئة مخصوصة، ف(الخلقُ) أصله: التَّقْدِير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117]⁽²⁾، وهي تشمل الهيئة والصُّورة والتَّقْدِير، فالخلقَةُ تُشير إلى البنية الظَّاهرة والهيئة الخارجيّة، كما في قوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 6]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [الؤمنون: 14]، فهي أقرب إلى وصف البنية الجسديَّة وشكل التَّكوين الأوَّل.

(1) الخليل، العين، والزَّاي، مختار الصحاح: (غلب).

(2) الراغب، المفردات: (خلق).

الخلقَةُ أصل
الإبداع التَّكويني
والنَّشْأَةُ إعادته

وَأَمَّا النَّشْأَةُ؛ فهي من الجذر (نشأ)، وتدُلُّ على الظُّهور والنُّمو والتَّطوُّر التَّدرِجِيَّ من طورٍ إلى طورٍ، النِّشْءُ والنَّشْأَةُ: إحداثُ شيءٍ وتربيتُهُ⁽¹⁾، فالنَّشْأَةُ ليست مجردَ خلقٍ، بل ابتداءٌ مع تطوُّر وتكْمُل⁽²⁾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أنتم تعلمون أنَّ خلقكم قد مرَّ بأطوار متدرِّجة: نطفة، ثمَّ علقه، ثمَّ مضغة، ثمَّ عظامًا، ثمَّ لحمًا... فلو تأملتم في هذه النَّشْأَةَ: لما استبعدتم النَّشْأَةَ الأخرى، وكذلك قوله: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه دلالة على تحوُّل جديد وتكوينٍ لا تعلمونه من قبل، أي: في صورةٍ أو طورٍ أو هيئةٍ لم تألفوها، وهو إشارة إلى البعث أو الخلق الآخر في الآخرة.

التَّذَكُّرُ والتَّفَكُّرُ:

التَّذَكُّرُ في اللُّغة مأخوذ من الجذر (ذكر)، ذكرت الشيء، خلاف نسيته، ثمَّ حمل عليه الذكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذُكْرٍ، بضمِّ الدَّال، أي: لا تنسه⁽³⁾، وهو يدلُّ على استحضار شيء قد عُلِمَ سابقًا، سواء كان ذلك من تجربة، أو سماع، أو إدراكٍ سابق، والذِّكْرُ كذلك: الحفظ للشيء تذكُّره، وجري الشيء على لسانك، تقول: جرى منه ذِكْرٌ⁽⁴⁾، فهو عودةٌ إلى معلومة مودعة في الذِّهن، قد حجبته الغفلة، أو أنساها الانشغال، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: إنَّكم تعرفون أنَّكم خُلِقْتُمْ من نطفة، وترون ذلك واقعًا، فلم لا تستحضرون هذا اليقين عند الحديث عن النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ (البعث) ؟ فَالتَّذَكُّرُ هنا يعني: الاستدعاء القلبِيَّ لما هو معلوم سلفًا، والاعتبار

التَّذَكُّرُ إعمال
العقل فيما هو
معلوم، والتَّفَكُّرُ
إعمال العقل
للاصول إلى
مجهول

(1) الراغب، للفردات: (نشأ).

(2) ابن سيده، الحُكم: (نشأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).

(4) الخليل، العين: (ذكر).

به، فالتَّذْكُرُ يتعلّق باستحضار حقائق معلومة ومعاينة آثارها؛ ليرتّب عليها التّسليم للحقّ والإيمان به.

وأما التّفكّر؛ فهو من الجذر (فكر)، ويعني: إعمال العقل بالنّظر والتّأمّل في شيء لا يدرك إلّا بالتّدبّر، وقد يكون جديداً على الذّهن، أو يحتاج إلى تحليل وقياس، أو محاولة استنتاج، وعليه فالتّفكّر نشاطٌ عقليٌّ تأمّليٌّ يبحث عن المجهول، ويُرْجى به الوصول إلى معرفة جديدة، لكنّ في قوله تعالى: ﴿فَظَلَلْتُمْ تَفَكُّهُنَّ﴾، جاء من معنى آخر للتّفكّه، وهو التّلهّي بالكلام عن الشّيء الغريب أو المثير للدهشة، فهو أقرب إلى التّنّدّر أو التّأسّف أو الاستغراب؛ لذلك فموضع (التَّذْكُر) ورد في مقام الحُجّة العقليّة؛ إذ المطلوب أن تسترجع ما تعلمه من الخلق الأوّل لتُسَلِّم بالبعث، أمّا (التّفكّه)؛ فورد في مقام الفقد الحسيّ (تحطيم الزّرع)، وهو تعبيرٌ عن الاندهاش السّلبّي والجزع، لا عن التّعقّل أو التّدبّر.

فالتَّذْكُر: فعلٌ قلبيٌّ ناتج عن يقين سابق، يُسترجع للتّنبيه والاعتبار، والتّفكّر: فعلٌ عقليٌّ استكشافيٌّ، يُبذل للوصول إلى معنى أو حكمة غير ظاهرة، وفي الآية: جاء التَّذْكُر في مقام حُجّةٍ على البعث، وجاء التّفكّه في تصوير ردّ فعل الإنسان عند فقد نعمة الدّنيا دون نظرٍ أو تعقّل، وبهذا تتجلّى بلاغة القرآن، في توظيف كلّ لفظ بحسب مقامه، بحيث لا يُغني أحدهما عن الآخر، ولا يقوم مقامه في المعنى المقصود.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحْمَن من الآية 31 إلى سورة الحديد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحْمَن من الآية 31 إلى سورة الحديد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحْمَن من الآية 31 إلى سورة الحديد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-648-68-0

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"